ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

الفقيه عيسى الهكّاريّ (ت. ٥٨٥هـ/١١٨٩م) ودوره في خدمة البيت الأيوبي

أ.م.د. غسان محمود وشاح
رئيس قسم التاريخ والآثار
كلية الآداب – الجامعة الإسلامية
غزة – فلسطين

مُلَخّص

يتناول البحث شخصية مهمة، لعبت دورًا بارزًا في ترسيخ أقدام السلطان الناصر صلاح الدين منذ وصوله إلى مصر برفقة عمه أسد الدين شيركوه، فتناقش الدراسة بداية العلاقة التي ربطت الفقيه عيسى الهكاري بالبيت الأيوبي، وتطور هذه العلاقة بعد وفاة أسد الدين شيركوه -عم السلطان صلاح الدين-، ووصول صلاح الدين لمنصب الوزارة في مصر، وموقف الفقيه عيسى الهكاري المؤيد والداعم لقرار الخليفة الفاطمي العاضد، هذا القرار الذي ميز الفقيه عيسى الهكاري عن كل الأمراء النورية كما يتناول البحث الدور الذي لعبه الفقيه عيسى الهكاري في إقناع الأمراء النورية المعارضين لقرار العاضد، بتولية صلاح الدين منصب الوزارة، ومشاركة الفقيه عيسى الهكاري للسلطان صلاح الدين في معركة الرملة، ووقوعه في الأسر الصليبي لمدة عامين، وما يدلل على أهمية ومكانة عيسى الهكاري عند السلطان صلاح الدين اشتراط السلطان صلاح الدين إطلاق سراح الأمراء الصليبيين في معركة مرج عيون، بإطلاق سراح الفقيه عيسى الهكاري. وتتناول الدراسة الدور السياسي والدبلوماسي الذي لعبه الفقيه بعد إطلاق سراحه من الأسر الصليبي، فقد أنجز مهمات دبلوماسية خاصة بتكليف مباشر من السلطان صلاح الدين، حيث تولى إقناع تقي الدين عمر ابن أخ السلطان صلاح الدين بالخروج من مصر، نزولًا عند قرار السلطان، كما قام بمهمة تحسين العلاقة بين السلطان صلاح الدين، ونور الدين محمود زنكي، وظل وفيًا للسلطان حتى وافته المنية مرابطًا حول مدينة عكا تحت قيادة السلطان الناصر صلاح الدين.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٨ سبتمبر ٢٠١٨
تاريخ قبول النشر: ٠٥ يناير ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

عيسى الهكاري؛ السلطان صلاح الدين؛ العاضد؛ الدولة الأيوبية؛ معركة الرملة

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0057041

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

غسان محمود وشاح. "الفقيه عيسى الهكّاريّ (ت. ٥٨٥هـ/١١٨٩م) ودوره في خدمة البيت الأيوبي".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد السادس والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٩. ص٣٧ – ٤٧.

مُقَدِّمَةُ

حظي الفقيه عيسى الهكاري، باهتمام المؤرخين المسلمين لارتباطه بالبيت الأيوبي، والعلاقة التي ربطته بأسد الدين شيركوه في الشام، وصحبته بعد ذلك لأسد الدين في رحلته إلى مصر، استجابة لاستغاثة الخليفة الفاطمي العاضد بنور الدين محمود زنكي؛ لمواجهة الغزو الصليبي لمصر، وتواطُؤِ وزيره شاوَرَ مع صليبيي الشام. وتوثقت عرى العلاقة التي جمعت الفقيه عيسى الهكاري بالبيت الأيوبي، بعد وفاة أسد الدين شيركوه، واختيار صلاح الدين لمنصب الوزارة في مصر، حيث أيد الفقيه قرار الخليفة الفاطمي العاضد، بخلاف كل الأمراء النورية الذين جاءوا إلى مصر بصحبة أسد الدين شيركوه، ووقفوا موقفًا معارضًا لقرار العاضد بتعيين صلاح الدين في منصب الوزارة، فقد طلب جميعهم منصب الوزارة لنفسه، اعتقادًا منهم أن

صلاح الدين أصغرهم سنًا، وأقلهم خبرة عسكرية، ودراية سياسية.

ولم يكتفِ الفقيه بتأييد قرار العاضد، بل عمل على كسب تأييد كبار الأمراء النورية المعارضين لقرار العاضد، حينما بدأ في إقناع كل واحد منهم على حدة، للوقوف خلف قرار العاضد، كي لا يكونوا سببًا في إفشال صلاح الدين في مهمته الجديدة، واستطاع أن ينجح في هذه الهمة ويبدو أن هذه المهمة هي، التي وثقت عرى العلاقة بين الرجلين، وزادت من ثقة السلطان بالفقيه، وكانت مدخلًا للمهمات الخاصة التي كُلّفَ بها الفقيه من قبل السلطان صلاح الدين، وقام بتحقيقها بعد ذلك بنجاح. وتشير المصادر أن الفقيه عيسى الهكاري قاتل بجانب صلاح الدين في عدد من المعارك فقد شارك في معركة الرملة، ضد مملكة بيت المقدس الصليبية، وقاتل الفقيه أشد القتال، على الرغم من الهزيمة التي لحقت بالجيش الأيوبي، والخسائر البشرية الكبيرة التي تسببت بها الهزيمة، ولعلَّ قتال الفقيه للجيش الصليبي بعد الهزيمة التي لحقت بالجيش الأيوبي، ووقوعه في الأَسْر الصليبي، تعكس الإيمان القوي للفقيه بالجهاد ضد الوجود الصليبي في المنطقة العربية، كما تعكس إخلاصه للسلطان صلاح الدين، كحامل لواء الجهاد في المنطقة العربية.

وقابل السلطان صلاح الدين هذا الإخلاص للفقيه عيسى الهكاري في معركة الرملة، أن اشترط لإطلاق سراح قادة الجيش الصليبي الأسرى في معركة مرج عيون إطلاق سراح الفقيه، وهو ما تحقق بالفعل، بعدما أمضى الفقيه ما يقرب من عامين في الأسر الصليبي، وازدادت ثقة السلطان السياسية بالفقيه مع مرور الأيام، ولعل تكليف السلطان له دون قادة الجيش الآخرين للسفر من الشام إلى مصر؛ لانجاز عدد من المهمات السياسية والدبلوماسية لها دلالات واضحة على ثقة صلاح الدين بالهكاري وبقدراته السياسية والدبلوماسية الفائقة. وجاءت وفاة الفقيه عيسى الهكاري، وهو مرابط حول مدينة عكا بصحبة السلطان صلاح الدين، ونقل جثمانه ليدفن في مدينة القدس.

مشكلة البحث

لمع اسم الفقيه عيسى الهكاري كواحد من الأمراء أمثال (بهاء الدين قراقوش والقاضي الفاضل)، الذين لعبوا دورًا مهمًا في خدمة البيت الأيوبي، وخصوصًا تثبيت أركان حكم السلطان صلاح الدين في مصر وبلاد الشام، وعليه من الضروري طرح مشكلة البحث، من خلال السؤال التالي: ما الذي ميَّزَ الفقيه عيسى الهكاري على غيره من الأمراء الكبار، الذين استند إليهم البيت الأيوبي، وخصوصًا السلطان صلاح الدين فترة حكمه لمصر وبلاد الشام؟ ويتفرع من هذا السؤال الرئيس، مجموعة من الأسئلة الفرعية الآتية، وهي: متى بدأت العلاقة بين الفقيه عيسى الهكاري والبيت الأيوبي؟ ما الأدوار المهمة التي قام بها الفقيه عيسى الهكاري في تثبيت أركان حكم السلطان صلاح الدين في مصر، بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه؟ ما المعارك العسكرية التي شارك فيها الفقيه عيسى الهكاري جنبًا إلى جنب مع السلطان صلاح الدين؟ ما المهمات الخاصة التي كلف السلطان صلاح الدين الفقيه عيسى الهكاري القيام بها؟

أهمية البحث

تكمن أهمية البحث، والموسوم بـ" الفقيه عيسى الهكاري ودوره في خدمة البيت الأيوبي، في الأسباب التالية:

- تسليط الضوء على شخصية الفقيه عيسى الهكاري، كأحد الشخصيات الثلاث التي ارتكز عليها السلطان صلاح الدين في تثبيت أركان حكمه في مصر وبلاد الشام، والقضاء على معارضيه.
- الوقوف على المَهمَّات الصعبة التي أسندها السلطان صلاح الدين للفقيه عيسى الهكاري، دون غيره من الأمراء الكبار حوله.
- معرفة مدى نجاح الفقيه عيسى الهكاري في إنجاز المهمات الخاصة، التي أسندها إليه السلطان صلاح الدين.

أهداف البحث:

- معرفة الأصول التاريخية التي يعود إليها الفقيه عيسى الهكاري.
- معرفة توقيت العلاقة التي ربطت الفقيه عيسى الهكاري بالأسرة الأيوبية.
- الوقوف على الأدوار المختلفة التي قام بها الفقيه عيسى الهكاري في خدمة الأسرة الأيوبية، وعلى وجه الخصوص في تثبيت السلطان صلاح الدين الأيوبي في وزارة العاضد.
- التعرف على الصفات القيادية التي تميز بها الفقيه عيسى الهكاري، وكانت سببًا في اعتماد السلطان صلاح الدين عليه للقيام ببعض المهمات الخاصة.

- معرفة المعارك العسكرية التي شارك فيها الفقيه عيسى الهكاري جنبًا إلى جنب مع السلطان صلاح الدين، وخلدت اسمه في كتب التاريخ.

منهج البحث

اعتمد الباحث على المنهج التاريخي في إعداد الورقة البحثية، وهو المنهج الذي يقوم على الاطلاع على المصادر التاريخية الأولى التي وثقت أدق التفاصيل عن حياة الفقيه عيسى الهكاري. ينسب الباحث الأقوال لأصحابها من المؤرخين دون زيادة أو نقصان، وذلك لدقة المعلومات التي قدمها المؤرخون عن حياة الفقيه عيسى الهكاري. يضع الباحث ما نقله بين علامتي تنصيص، وذلك للتفريق بين ما نُقِل نصًا، وما نُقِلَ بتصرف، وما نُقِلَ بالمعنى يُذْكَر في الحاشية.

أولًا: شخصية الفقيه عيسى الهكاري ودوره في خدمة البيت الأيوبي

من الأهمية بمكان التعرف على شخصية الفقيه عيسى الهكاري، والأصول التي يعود إليها الفقيه المذكور، وذلك للاستفادة منها لاحقًا في التعرف أكثر على شخصية الرجل القيادية، وقيمة الأدوار " التاريخية" التي لعبها في تثبيت أركان حكم السلطان صلاح الدين في مصر وبلاد الشام، رغم المعارضة القوية التي تعرض لها السلطان من الداخل، وخصوصًا من الأمراء النورية الذين رأوا أنهم أحق بمنصب الوزارة، أو من الخارج، وخصوصًا من صليبي الشام، الذين كانوا يرقبون ما يجري في مصر أولًا بأول، وذلك لأن أي تغيير في مصر من شأنه أن ينعكس على وجودهم في بلاد الشام.

١/١-شخصية الفقيه عيسى الهكاري:

وقف ابن خلكان في ترجمته للفقيه عيسى الهكاري، على نسبه الذي يعود، وذلك لعظم المكانة والمنزلة التي كان عليها الفقيه الهكاري، وخصوصًا أنه جمع بين العلم الشرعي، والعمل السياسي، والعسكري، فقد بدأ ترجمته للفقيه بقوله: "هو الفقيه أبو محمد، عيسى بن محمد بن عيسى بن محمد بن أحمد بن يوسف بن القاسم، ابن عيسى بن محمد بن القاسم بن محمد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، هكذا أملى علي نسبه ولد ولد أخيه، ويقال له (الهَكَّاري) الملقب ضياء الدين، كان أحد الأمراء بالدولة الصلاحية(نسبة إلى السلطان صلاح الدين)، كبير القدر، وافر الحُرْمَة، مُعَوَّلًا عليه في الآراء والمشورات، وكان في مبدأ أمره يشتغل في الفقه بالمدرسة الزّجاجيّة بمدينة حلب[١]، فاتصل بالأمير أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين، وصار إمامَهُ يصلي به الفرائض الخمس، ولما توجه أسد الدين إلى الديار المصرية، وتولى الوزارة كان في صُحْبَتِه[٢]، وكان يَلْبَسُ زي الأجناد، ويعتم بعمائم الفقهاء، فيجمع بين اللباسين[٣]، وكان فقيهًا جنديًا شجاعًا كريمًا ذا عصبية ومروءة، وهو من أصحاب الشيخ الإمام أبي القاسم بن البرزي، تفقه عليه بجزيرة ابن عمر[٤]، وكان صلاح الدين يميل إليه ويستشيره وكأن الله قد أقامه لقضاء حوائج الناس والتفريج عن المكروبين مع الورع والعِفَّة والدين- رحمه الله-[٥].

ولعل أكثر ما يؤخذ على تعريف ابن خلكان للفقيه عيسى الهكاري، هو اعتماده في تعريف الفقيه، على حفيد أخيه للفقيه عيسى، وليس على الفقيه عيسى نفسُه، والأمر الآخر أنه لم يأتِ أحد من المؤرخين المسلمين على ذكر نسب الفقيه عيسى الهكاري، وَوَصَلَهُ إلى البيت الهاشمي، كما جاء على ذلك ابن خلكان، والأرجح أن الفقيه يعود في أصوله إلى الأكراد الهكارية، الذين وصلوا إلى بلاد الشام لتلقي العلوم الشرعية، واستقر بهم الأمر فيها. والهَكَاريّ، بفتح الهاء والكاف المشددة، وبعد الألف راء، هذه النسبة إلى الهكارية، وهي ولاية تشتمل على حصون وقرى من أعمال الموصل[٦] من جزيرة ابن عمر[٧]، منها أبو الحسن علي بن أحمد بن يوسف بن جعفر بن عرفة الهكاري الملقب بشيخ الإسلام، وهو من ولد عتبة بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية، كان كثير الخير والعبادة، سمع بمكة أبا الحسن محمد بن علي بن صخر الأزدي، وبمصر أبا عبد الله محمد بن الفضل بن نظيف، وببغداد أبا القاسم بن بشران، وسمع من غيرهم سمع منه أبو زكريا يحيى بن عطاف الموصلي وغيره، وكانت ولادته سنة (٤٠٩هـ/١٠١٨م)، ومات بالهكارية أول (محرم ٤٨٦هـ/ فبراير ١٠٩٣م)[٨].

ويُستدل من كثرة الأمراء والعلماء الذين تعودُ أصولهم إلى ولاية هَكاريّ الكردية، أنها ولاية متميزة عن باقي الولايات الكردية الأخرى، وأن أهلها يميلون إلى طلب العلم الشرعي، بالإضافة إلى حب الفروسية، حيث توزع الكثير من العلماء والأمراء الهكاريين في بلاد الشام، بعد وصول الزنكيين إلى سدة الحكم، طلبًا للعلم، والجهاد في سبيل الله.

١/٢-الفقيه عيسى الهكاري مبعوث أسد الدين شيركوه إلى الوزير شاور:

وصل أسد الدين شيركوه بالعساكر النورية إلى مصر في يوم الثلاثاء(٢٧ ربيع الأول ٥٦٤هـ/٣٠ ديسمبر ١١٦٨م)، ولما بلغ الصليبيين قرب وصوله عادوا عن القاهرة إلى بلادهم، وكان رجوعهم في يوم السبت (٣ ربيع الآخر ٥٦٤هـ/٥ يناير ١١٦٩م)، ومعهم من الأسرى المسلمين اثنا عشر ألف أسير، ودخل أسد الدين إلى القاهرة في(٧ ربيع الآخر ٥٦٤هـ/٩ يناير ١١٦٩م)، وخرج في استقباله الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله[٩]، وحضر يوم الجمعة (٩ ربيع الآخر ٥٦٤هـ/ ١١ يناير ١١٦٩م) إلى الإيوان، وجلس إلى جانب العاضد، وخَلَعَ عليه خِلْعَة الوزارة الجُبَّةَ والعَمَامَة، وفرح الناس بقدومه وعاد أهل مصر إليها[١٠].

ولقد أمر العاضد أسد الدين بالنزول على شاطئ النيل بالمقس[١١]، ورتب له شاور ولمن معه الإقامات الوافرة، وصار يتردد إليه في كل يوم، فطلب أسد الدين من شاور مالًا ينفقه في عسكره فَمَطَلَه[١٢]، فسيرَّ إليه شيركوه الفقيه عيسى الهكاري يطالبه بالنفقة، فلم يكترث شاور بطلب الفقيه، وشرع في المماطلة فيما كان قرره لنور الدين محمود زنكي، وعزم على أن يصنع دعوة، ويحضر أسد الدين وجماعة من الأمراء الذين معه، ويقبض عليهم، فنهاه عن ذلك ولده الكامل، وحلف أنه إن صمم على هذا الأمر عرف به شيركوه، فقال له أبوه والله لئن لم تفعل هذا قُتِلْنَا عن آخرنا، فقال الكامل لأبيه صدقت! ولأن نقتل ونحن مسلمون خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فترك ما عزم عليه[١٣].

ويستدل مما سبق الصراع المرير بين الوزراء الفاطميين في مصر، وعلى وجه الخصوص الصراع بين الوزيرين شاور والضرغام، وهروب شاور إلى بلاد الشام، واستغاثته بنور الدين محمود، والذي سَيرَّ إلى مصر أسد الدين شيركوه، لإعادة شاور إلى منصب الوزارة، ولكن الأخير وبعدما استقر به الأمر في الوزارة، حاول التخلص من أسد الدين شيركوه، وهو الفعل الذي كلفه حياته، حيث عَمَدَ أسد الدين شيركوه، وبعد موافقة الخليفة العاضد، على قتل شاور في (١٧ ربيع الآخر ٥٦٤هـ/ ١٧ يناير ١١٦٩م).

١/٣-الفقيه عيسى الهكاري ودوره في تثبيت السلطان صلاح الدين في الوزارة العاضدية:

توفي أسد الدين شيركوه فجأة في (٢٢ جمادى الآخرة ٥٦٤هـ/٢٧ مارس ١١٦٩م)، فكانت وزارته قصيرة جدًا، حيث مكث في الوزارة العاضدية شهرين وخمسة أيام، وقد اتفق كبار الأمراء الأسدية(نسبة إلى أسد الدين شيركوه) في الجيش النوري المقيم في مصر، وهما: الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري، والطواشي[١٤] بهاء الدين قراقوش[١٥]، على ترتيب السلطان صلاح الدين في الوزارة العاضدية، خلفًا لعمه أسد الدين شيركوه، ودَقَّقا الحيلة في ذلك، حتى بلغا المقصود، وهو ما جاء على ذكره ابن العديم بقوله: " وكان جماعة من الأمراء الذين كانوا مع أسد الدين قد تطاولوا إلى الوزارة، منهم: عين الدولة بن اليازوقي، وسيف الدين المشطوب، وشهاب الدين محمود الحارمي خال السلطان صلاح الدين، وقطب الدين ينال بن حسان، فأرسل العاضد إلى صلاح الدين، وأحضره، عنده، وولاَّه الوزارة بعد عمه، وخلع عليه، ولقبه بالملك الناصر، فاستتبت أحواله، وبذل المال، وأخذ في الجد والتشمير في أموره كلها، وكان الفقيه عيسى الهكاري معه، فميَّل الأمراء الذين كانوا قد طمعوا بالوزارة إلى الانقياد إليه، فأجابوا سوى عين الدولة بن اليازوقي، فإنه امتنع، وعاد إلى نور الدين في الشام[١٦].

ولقد جاء ابن الأثير على ذكر ذلك بالتفصيل، بقوله:" وأما كيفية ولايته، فإن جماعة من الأمراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة العاضدية بعده، منهم عين الدولة اليازوقي، وقطب الدين ينال، وسيف الدين المشطوب الهكاري، وشهاب الدين محمد الحامي، وهو خال صلاح الدين، وكل واحد من هؤلاء يخطبها، وقد جمع أصحابه ليغالب عليها، فأرسل العاضد إلى صلاح الدين، وخلع عليه وولاه الوزارة بعد عمه، وكان الذي حمله على ذلك أن أصحابه قالوا له ليس في الجماعة أضعف ولا أصغر سنًا من يوسف، والرأي أن يُولىَّ، فإنه لا يخرج من تحت حكمنا، ثم نضع على العساكر من يستميلهم إلينا، فيصير عندنا من الجنود من نمنع بهم البلاد ثم نأخذ يوسف أو نخرجه، فلما خلع عليه لقب الملك الناصر، ولم يعطه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم ولا خدموه، وكان الفقيه عيسى الهلكاري معه، فسعى مع المشطوب حتى أماله إليه، وقال له إن هذا الأمر لا يصل إليك مع عين الدولة، والحارمي، وغيرهما، ثم قصد الحارمي، وقال هذا صلاح الدين هو ابن اختك، وعزه وملكه لك، وقد استقام له الأمر، فلا تكن أول من يسعى في إخراجه عنه، ولا يصل إليك، فمال إليه أيضًا، ثم فعل مثل هذا بالباقين، وكلهم

أطاع غير عين الدولة اليـاروقي، فإنـه قـال أنـا لا أخـدم يوسف، وعاد إلى نـور الـدين بالشـام ومعـه غـيره مـن الأمراء"[١٧].

فلما تولى صلاح الدين رأى له ذلك، واعتمد عليه، ولم يكن يخرج عن رأيه، وكان كثير الإدلال عليه، يخاطبه بما لا يقدر عليه غيره من الكلام، وكان واسطة خير للناس، نفع بجاهه خلقًا كثيرًا"[١٨]. ويستدل مما سبق، الحنكة السياسية للفقيه عيسى الهكاري، وقدرته على كسب قلوب الأمراء النورية، وضمان وقوفهم خلف السلطان صلاح الدين، على الرغم من أن كل واحد منهم كان يطمع أن يكون هو في منصب الوزارة العاضدية. ويختلف المؤرخون حول تاريخ ابتداء الدولة الأيوبية، فالبعض يجعله منذ تولي صلاح الدين الأيوبي الوزارة من الخليفة العاضد لدين الله سنة (٥٦٤هـ/١١٦٩م)[١٩]، والبعض الآخر يجعله مع إعادة الخطبة في مصر للخليفة العباسي التي تلاها وفاة العاضد لدين الله وانتهاء الخلافة الفاطمية (٥٦٧هـ/١١٧١م)، صحيح أن سلطة صلاح الدين بدأت منذ توليه الوزارة، ليدعمها بخطوة القضاء على الدولة الفاطمية، لكنه من الناحية الشرعية كان لا يزال تابعًا لسلطة نور الدين محمود الذي ما لبث أن توفي سنة (٥٦٩هـ/١١٧٤م)، ولذلك فإن سنة الوفاة هذه هي برأينا تاريخ ابتداء الدولة الأيوبية التي اعترف بها الخليفة العباسي المستضيء بالله سنة (٥٧٠هـ/١١٧٥م)[٢٠].

١/٤-الفقيه عيسى الهكاري مبعوث السلطان صلاح الدين إلى الملك نور الدين محمود:

هـاجم صـلاح الـدين صـليبيي الشـام سـنة (٥٦٧هـ/١١٧٢م)، وحـاصر حصـن الشـوبك[٢١]، فبلـغ ذلـك الملـك نـور الـدين محمـود زنـكي، فـاعتزم عـلى قصـد صليبيي الشام من ناحية أخرى، فارتاب صلاح الدين في أمره، فـأسرع العـودة إلى مصر، وأخـذ نـور الـدين في الاستعداد لعزل السلطان صلاح الدين عن حكم مصر، وبلغ ذلك السلطان وأصحابه، فتشاوروا في مهاجمة نور الدين محمود، ولكن الفقيه عيسى الهكاري ووالد صلاح الدين نجم الدين أيوب قاموا بنهيهم عن ذلك، وأشاوار على صلاح الدين بمكاتبة نور الدين محمود والتَّلطُّف له، مخافة أن يبلغه غير ذلك، فيقوى عزمه على عزله، ففعل ذلك صلاح الدين، فسالمه نور الدين، وعادت المخالطة بينهما كما كانت، واتفقا على اجتماعهما لحصار الكَرَك[٢٢]، فسار صلاح الدين لذلك سنة (٥٦٨هـ/ ١١٧٣م)، وخرج الملك نور الدين من دمشق بعد أن تَجَهَّزَ، فلما انتهى إلى الرقيم[٢٣]، وبلغ صلاح الدين خبره، ارتابه ثانيًا، وجاءه الخبر بمرض أبيه بمصر، فَكَرَّ راجعًا[٢٤]، وأرسل إلى نور الدين محمود الفقيه عيسى الهكاري، بما وقع من حديث المرض بأبيه، وأنه رجع من أجله، فأظهر نور الدين القَبُول وعاد إلى دمشق[٢٥].

ثانيًا: الفقيه عيسى الهكاري ودوره الجهادي

شارك الفقيه عيسى الهكاري السلطان صلاح الدين معاركه ضد الوجود الصليبي في بلاد الشام، وكانت أولى هذه المعارك، معركة الرملة، والتي قاتل فيها الفقيه الصليبيين أشد القتال، إلى أن وقع أسيرًا، وأمضى في الأسر الصليبي ما يقرب من عامين، حتى معركة مرج عيون، حينما اشترط السلطان صلاح الدين، مقابل إطلاق سراح الأسرى الصليبيين، إطلاق سراح الفقيه الهكاري، ولعل ما يسجل للفقيه بالإضافة إلى سجله الجهادي، هو ثقة السلطان السياسية به.

١/٢-الفقيه عيسى الهكاري ومشاركته صلاح الدين معركة الرملة:

سار السلطان صلاح الدين في (جمادى الأولى٥٧٣هـ/ نوفمبر ١١٧٧م) من مصر إلى بلاد الشام؛ لقصد الصليبيين المحتلين لفلسطين، حتى وصل مدينة عسقلان[٢٦] في (٢٤ جمادى الأولى٥٧٣هـ/١٩ نوفمبر١١٧٧م)، وتقدمت القوات الأيوبية إلى أن وصلت مدينة الرملة[٢٧]، وفجأة هاجمت القوات الصليبية لمملكة بيت المقدس (Hierosolymitanum Regnum) بقيادة الملك بلدوين الرابع (Aldwin IV) (٥٧٠-٥٧٩هـ/ ١١٧٤-١١٨٣م) الجيش الأيوبي، وركزت هجومها على جهة السلطان صلاح الدين، الذي لم يكن معه إلا عددًا بسيطًا من الجنود، بعدما تفرق باقي الجيش لجمع الغنائم، وقد قاوم السلطان صلاح الدين الصليبيين المهاجمين، مع عدد محدود من الجنود الأيوبيين، وكان أشد الناس قتالًا ذلك اليوم الفقيه عيسى الهكاري[٢٨]، وتمت الهزيمة على المسلمين، وحمل بعض الصليبيين على السلطان صلاح الدين، حتى كادوا يصلوا إليه، وتكاثر الفرنج عليه، فمضى منهزمًا يسير قليلًا ويقف؛ ليلحقه العسكر، فسلك صحراء سيناء، إلى أن مضى في نفر يسير إلى مصر، ولقوا في طريقهم مشقة شديدة، وهلك كثير من دواب العسكر جوعًا وعطشًا، وأما العسكر الذين دخلوا بلاد الفرنج في الغارة، فإن أكثرهم ذهب ما بين قتيل وأسير[٢٩].

وكان من جملة مَنْ أُسِرَ الفقيه عيسى الهكاري، وأُسِرَ أيضًا أخوه الظهير، وكانا قد سارا منهزمين فَضَلَّا الطريق، فأُسرا ومعهما جماعة من أصحابهما، ووصل صلاح الدين إلى القاهرة، في (١٥ جمادى الآخرة ٥٧٣هـ=10 ديسمبر١١٧٧م)[٣٠]، ويذكر ابن الأثير أنه رأى كتابًا كتبه السلطان صلاح الدين بخط يده، إلى أخيه شمس الدولة توران شاه وهو بدمشق يذكر الوقعة، وفي أوله[٣١]:

ذكرتك والخطّيُّ[٣٢] يخطر بيننا
وقد نهلت[٣٣] منا المثقَّفَةُ[٣٤] السمرُ

ويقول فيه:" لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة، وما نجانا الله سبحانه منه، إلا لأمر يريده سبحانه، وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر"[٣٥].

ويستدل من مشاركة الفقيه عيسى الهكاري في معركة الرملة، والقتال جنبًا إلى جنب مع السلطان صلاح الدين، ووقوعه في الأسر، أهمية مشاركة علماء الأمة في الجهاد في سبيل الله، وألا يقتصر دورهم على حث الناس على الجهاد من فوق المنابر. في حين كانت هزيمة السلطان صلاح الدين الأيوبي في معركة الرملة، تعود إلى جملة من الأسباب، أهمها عنصر المفاجأة الذي اعتمدت عليه القوات الصليبية، وفي تركيز هجومها المباغت على قيادة الجيش الأيوبي، في الوقت الذي انشغل فيه أفراد الجيش بجمع الغنائم.

٢/٢-معركة مرج عيون وفك قيد الفقيه عيسى الهكاري:

كانت معركة مرج عيون[٣٦]، والتي دارت رحاها يوم الأحد (٨ محرم ٥٧٥هـ/١٦ يونيو ١١٧٩م)، واحدة من المعارك الحاسمة التي خاضها السلطان صلاح الدين في طريق كسر شوكة الصليبيين في بلاد الشام، وقد بدأت وقائع المعركة حينما كان السلطان صلاح الدين في طريقه إلى تل القاضي ببانياس[٣٧]، لملاقاة الجيش الصليبي؛ وكان الأخير قد أتم حشد أكثر من عشرة آلاف مقاتل صليبي، فلما التقوا الجيش الأيوبي، انهزموا عند اللقاء، وأُسر منهم ما يزيد على مائتين وسبعين أسيرًا، فنقلهم السلطان صلاح الدين جميعًا إلى مدينة دمشق، فأخذوا يفتكوا أنفسهم الواحد تلو الآخر، فافتك صاحب الرملة الأمير الصليبي باليان دي إيلين(Balian d'Ibelin)، والذي تذكره المصادر التاريخية الإسلامية بـ"ابن بارزان" نفسه بمائة ألف دينار وخمسين ألف دينار صورية[٣٨]، وإطلاق سراح ألف أسير من الأسرى المسلمين، والتزم بفكاك الفقيه عيسى الهكاري، وأما ابن القومصية[٣٩] صاحبة طبرية[٤٠] فافتكته أمه بخمس وخمسين ألف دينار صورية، وأما مقدم " الداوية" (Pauperes commilitones Christi Templique Salomonici)[٤١] فإنه هلك، فطلبت جثته بإطلاق ألف أسير من مقدمي المسلمين[٤٢]، وكانت لعز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب (ت: جمادى الأولى ٥٧٨هـ= سبتمبر ١١٨٢م)، صاحب بعلبك، ابن أخي السلطان صلاح الدين في هذه المعركة اليد البيضاء، والبلاء المذكور[٤٣].

ويستدل من اشتراط السلطان صلاح الدين على الصليبيين، مقابل إطلاق سراح قادتهم، إطلاق سراح الفقيه عيسى الهكاري، المنزلة الرفيعة التي كان يحظى بها الفقيه عند السلطان صلاح الدين، وداخل الجيش الأيوبي، الذي كان فيه الفقيه أحد قادته العظام.

٣/٢-الفقيه عيسى الهكاري ومشاركته السلطان صلاح الدين حصار مدينة الموصل:

ذهب السلطان صلاح الدين الأيوبي، وفي إطار سعيه الطويل إلى توحيد الجبهة الإسلامية؛ لمواجهة الاحتلال الصليبي الجاثم فوق صدر المنطقة العربية، إلى حصار مدينة الموصل[٤٤] في (ربيع الأول ٥٨١هـ/ يونيو ١١٨٦م)، حيث ذهب صاحبها إلى الكيد للسلطان صلاح الدين، وهو ما جاء في الرسالة التي بعث بها السلطان للخليفة العباسي، وحملها القاضي ضياء الدين الشهرزوري[٤٥]، ولكن حين وصل السلطان إلى مدينة بلد[٤٦]، سَيَّرَ إليه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي(ت:٥٨٩هـ/١١٩٣م) صاحب الموصل والدته، وابنة عمة الملك العادل نور الدين الشهيد، وغيرهما من النساء في جماعة من أعيان الدولة يسألونه المصالحة، وبذلوا موافقته وإمداده بالعساكر متى طلبها، ليعود عن قصد الموصل، فتلقاهن بالإكرام، وأحسن إليهن، واستشار أصحابه في ذلك، فكلٌّ أشار عليه بموافقتهن، فقال له الفقيه عيسى الهكاري، والأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب الهكاري: مثل الموصل لا تترك لامرأة ! وإن عز الدين ما أرسلهن إلا وقد عجز عن الحرب، فوافق ذلك هواه، فردهن خائبات، واعتذر بأعذار غير مقبولة، وقصد الموصل وحاصرها، وكان بينهم مناوشات، فلم يتمكن منها، فندم حيث لم يحبس النساء، ففي أثناء ذلك توفي شاه أرمن صاحب خلاط[٤٧]، فأشار عليه أصحابه بمفارقة الموصل وقصد الخلاط ففارقها[٤٨].

ويستدل من حصار السلطان لمدينة الموصل أهمية توحيد الجبهة الإسلامية بكل السبل والوسائل، حتى لو اضطر الأمر إلى استخدام القوة العسكرية في سبيل تحقيق ذلك، ولعل رفض الفقيه عيسى الهكاري ترك الموصل لعز الدين زنكي، كان بسبب عداء الأخير للسلطان صلاح الدين، وتحريضه المستمر للصليبيين على قتال السلطان صلاح الدين، وخذلانه للجيش الأيوبي في معاركه ضد الغزو الصليبي لبلاد الشام.

٤/٢-الفقيه عيسى الهكاري ودوره في تماسك البيت الأيوبي:

سقط السلطان صلاح الدين مريضًا في (٧ رمضان ٥٨١هـ=٣ ديسمبر ١١٨٥م) أثناء حصاره لمدينة الموصل، وانسحب إلى حَرَّان[٤٩]، وقد أشيع بمصر- أن السلطان صلاح الدين قد مات، فحاول ابن أخيه تقي الدين عمر، أن يستفرد بحكم مصر، فلما عوفي صلاح الدين من مرضه، بلغه صنع ابن أخيه، فأرسل الفقيه عيسى- الهكاري إلى مصر، وأمره بإخراج تقي الدين منها، والمقام بمصر، فسار مسرعًا، فلما وصل إلى القاهرة أمر تقي الدين بالخروج منها، فطلب إمهاله حتى يتجهز، فرفض الفقيه طلبه، وقال له تقيم خارج المدينة وتتجهز، فخرج، وكان يَهُمُّ في الرحيل إلى الغرب، فقال له اذهب حيث شئت، فلما سمع صلاح الدين الخبر، أرسل إليه يطلبه، فسار إلى الشام، فأحسن إليه، ولم يظهر له شيئًا مما كان، لأنه كان حليمًا كريمًا صبورًا[٥٠].

٥/٢-الفقيه عيسى الهكاري وفتح مدينة عكا:

لما فَرَغَ صلاح الدين من معركة حطين في (25 ربيع الثاني ٥٨٣هـ/ ٤ يوليو ١١٨٧م)، سار إلى مدينة عكا فحاصرها، واعتصم صليبيو المدينة داخل قلاعها، وطلبوا من السلطان الأمان فأمَّنَهم، وخيَّرهم فاختاروا الرحيل عن المدينة، فأخذوا يحملون ما أقلَّتْهُ رحالهم، ودخلها صلاح الدين غرة (جمادى الأولى ٥٨٣هـ/ أغسطس ١١٨٧م)، وصَلّوًا في جامعها القديم صلاة الجمعة، فكانت أول جمعة أقيمت بساحل الشام بعد استيلاء الصليبيين عليه، وأقطع صلاح الدين عكا لابنه الأفضل، ووهب للفقيه عيسى الهكاري كثيرًا مما عجز الصليبيون عن حمله، وقسم الباقي على أصحابه، ثم أقام السلطان أيامًا حتى أصلح أحوالها، ورحل عنها[٥١].

وفي معركة عكا يقول اللواء العراقي محمود شيث خطاب:" وبدأت بعد معركة حطين الحاسمة، معارك استثمار الفوز، وسارت أعلام صلاح الدين من فتح إلى فتح، وأصبحت ثمرات جهوده وجهاده في خلال سبعة عشرة سنة من حكمه تبدو واضحة للعيان، ولعل معركة (حطين) الحاسمة هي الثمرة الأولى لذلك الجهد والجهاد من تلك الثمرات"[٥٢]. ويستدل من تخصيص السلطان صلاح الدين ما عجز الصليبيون عن حمله للفقيه، دور الفقيه في تحرير المدينة من الصليبيين، ومكافأة له على دوره الجهادي، والذي بدأه في معركة الرملة جنبًا إلى جنب مع السلطان صلاح الدين قبل عشر سنوات.

٦/٢-وفاة الفقيه عيسى الهكاري:

توفي الفقيه ضياء الدين عيسى- الهكاري يوم الثلاثاء (٩ ذو القعدة ٥٨٥هـ/ ٢٠ ديسمبر١١٨٩م)، بالخروبة[٥٣]، وهو برفقة السلطان صلاح الدين، ثم نُقِلَ جثمانه إلى مدينة القدس، ودفن بظاهرها- رحمه الله تعالى-[٥٤]. ويستدل من توقيت ومكان وفاة الفقيه، وهو مرابط في سبيل الله في فلسطين؛ في أثناء مواجهته الاحتلال الصليبي لمدينة عكا، برفقة السلطان صلاح الدين، بالإضافة إلى دفنه في مدينة القدس، صلاح الفقيه، وإخلاصه لله عز وجل.

خَاتِمَةٌ

بعد هذه الجولة البحثية، والتي تضمنت دراسة متخصصة ودقيقة، وذلك في حياة الفقيه عيسى- الهكاري، خلص الباحث إلى مجموعة من النتائج والتوصيات المهمة، وهي، كالتالي:

- الفقيه عيسى- الهكاري، يعود في أصوله التاريخية إلى الأمة الكردية العظيمة، وتحديدًا إلى الأكراد الهكارية، الذين استقروا في المنطقة القريبة من شمال العراق، ولا صحة لنسب الفقيه إلى سلالة الحسن بن علي رضي الله عنهما.
- أول علاقة ربطت الفقيه عيسى- الهكاري بالبيت الأيوبي، كانت في عهد أسد الدين شيركوه، حينما اختاره الأخير ليكون إمامًا له في الصلوات الخمس، وقد توثقت هذه العلاقة بشكل ملحوظ في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي.
- دعم الفقيه عيسى- الهكاري لقرار الخليفة الفاطمي العاضد، باختيار السلطان صلاح الدين في منصب الوزارة العاضدية، من دون كل الأمراء

النـوريين الكبـار، تعكـس فطنـة الرجـل، وخبرتـه ومعرفته بمعادن الرجال.

- قام الفقيه عيسى الهكاري بمفاوضة وإقناع كبار الأمـراء النـوريين الـراغبين في منصـب الـوزارة العاضـدية، والمعارضـين لقـرار العاضـد باختيـار السلطان صلاح الدين للمنصب، وكسبهم بعد جولة مـن المفاوضـات القصـيرة، ليكونـوا جميعًـا خلـف السـلطان صـلاح الـدين، تعكـس مهـارة الفقيـه مـن جانـب، واحترامـه وتقـديره مـن كبـار أمـراء الجـيش النوري من جانب آخر.
- شارك الفقيه عيسى الهكاري السلطان صلاح الدين في معركة الرملة، وقتاله فيها الجيش الصليبي أشد القتال، على الرغم من الهزيمة التي لحقت بالسلطان صلاح الدين في نهاية المعركة، ووقوعه في الأسر، تظهر أهمية مشاركة العلماء جنبًا إلى جنب السلاطين الجهاد في سبيل الله.
- اشتراط السلطان صلاح الدين إطلاق سراح الفقيه عيسى الهكاري من الأسر الصليبي، مقابل إطلاق سراح بعض قادة الجيش الصليبي- الأسرى في معركة مرج عيون- تعكس قيمة الفقيه داخل الجيش الأيوبي.
- اختيار السلطان صلاح الدين للفقيه عيسى الهكاري دون غيره من الأمراء الكبار في الجيش الأيوبي؛ لإخراج تقي الدين من حكم مصر، بعد رغبة الأخير التفرد بحكم مصر، ونزول تقي الدين عند رأي الفقيه، بالخروج من القاهرة على وجه السرعة، دليل آخر على مهارة الرجل العالية، وتنفيذه الأمين لأوامر السلطان.
- اصطحاب السلطان صلاح الدين للفقيه عيسى الهكاري في حروبه الطويلة، ضد الوجود الصليبي في بلاد الشام، تظهر أهمية الفقيه داخل الجيش الأيوبي، والاحترام والتقدير الذي حظي به العلماء داخل صفوف الجيش الأيوبي، وعلى وجه الخصوص في عهد السلطان صلاح الدين.
- من علامات الصلاح للفقيه عيسى الهكاري، وحسن خاتمته، أنه مات مرابطًا، حول مدينة عكا، صحبة السلطان صلاح الدين، ودفن في مدينة القدس، وهي من أطهر البقاع على وجه الأرض.

التوصيات

- ضرورة أن يحسن الحكام المسلمون اختيار الشخصيات المقربة منهم، كما أحسن السلطان صلاح الدين اختيار الفقيه عيسى الهكاري، وغيره من كبار الأمراء، ليكونوا عونًا له في إقامة الدولة الأيوبية، والدفاع عنها في وجه الأخطار الخارجية.
- أهمية اصطحاب السلاطين لكبار العلماء في حروبهم، وذلك للاستفادة منهم في شحذ همم القادة والجنود على القتال في سبيل الله، بالإضافة إلى أهمية رأي العلماء وقت الحرب، وخصوصًا في التعامل مع الأسرى، والغنائم، وغيرها من المسائل التي تحتاج إلى رأيهم الفقهي.
- بذل الغالي والنفيس في إطلاق سراح الأسرى القادة من سجون الاحتلال، ولعل بذل السلطان صلاح الدين ستين ألف دينار، لإطلاق سراح الفقيه عيسى الهكاري من الأسر الصليبي، هو أبلغ رسالة في بذل الغالي والنفيس من أجل تحرير الأسرى المسلمين.
- رفع مكانة العلماء في صفوف الجيوش، ولعل اختيار السلطان صلاح الدين للفقيه عيسى الهكاري في المهمات الخاصة أكثر من مرة، جاء احترامًا من السلطان للعلماء المجاهدين داخل الجيش الأيوبي.
- إعداد المزيد من الأبحاث العلمية "المُحَكَّمة"، التي تتناول دور الأمراء الكبار في تثبيت أركان حكم السلطان صلاح الدين الأيوبي، وذلك للاستفادة من الخبرات السياسية والأمنية والعسكرية لهؤلاء الأمراء، في بناء مؤسسات الدولة الإسلامية المنتظرة.

الهَوامِشُ:

(١) حلب، مدينة سورية عظيمة، واسعة كثيرة الخيرات، وهي تقع في شمال البلاد. (الحموي، **معجم البلدان**، ج٢، دار صادر، بيروت، لبنان، (١٤١٥هـ/١٩٩٥م). ط٢ ص١٠١).

(٢) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، (ج٣، ص٤٩٧) ٨ج، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، د. ط، د. ت..

(٣) العليمي، **الأنس الجليل**، ج٢، ص١٤٤.

(٤) جزيرة ابن عمر، بلدة فوق الموصل، بينهما ثلاثة أيام، ولها رستاق مخصب واسع الخيرات، وأحسب أن أول من عَمَرَها الحسن بن عمر بن خطاب التغلبي(الحموي، **معجم البلدان**، ج٢، ص١٣٨).

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص١٠٠. وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، مصر، د. ط، د. ت.

(٦) الموصل، مدينة عراقية المشهورة العظيمة، إحدى قواعد بلاد الإسلام، قليلة النظير كبرًا وعظمًا، وكثرة خلق، وسعة رقعة، فهي محط رحال الركبان، ومنها يقصد إلى جميع البلدان، فهي باب العراق، ومفتاح خراسان، ومنها يقصد إلى أذربيجان.(الحموي، **معجم البلدان**، ج٥، ص٢٢٣).

(٧) السمعاني، **الأنساب**، ج٥، ص٦٤٥؛ **الأنساب**، ٥ج، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، دار الجنان، بيروت، لبنان، ط٢، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م). ابن الجوزي، المنتظم، ج ١٧، ص٧.

(٨) ابن الأثير، اللباب في تهذيب **الأنساب**،١١ج، تحقيق: عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م). ج٣، ص٣٩٠.

(٩) العاضد، الخليفة الحادي عشر من خلفاء بني عبيد بمصر، والرابع عشر بالثلاثة الذين ولوا بالمغرب المهدي والقائم والمنصور، ولد عام (٥٤٥هـ/١١٥٠م)، وقيل عام (٥٤٠هـ/١١٤٥م)، وبويع في رجب بعد موت ابن عمه الفائز بنصر الله سنة (٥٥٥هـ/١١٦٠م)، وهو ابن ١١ سنة وشهور، وتوفى العاضد يوم عاشوراء (١١ محرم ٥٦٧هـ/٢٤ سبتمبر ١١٧١م)، وعمره ٢٣ سنة، فكانت أيامه في الخلافة ١١ سنة، واختلفوا في سبب وفاته على أقوال: أحدها أنه تفكر في أموره فرآها في إدبار، فأصابه جرح عظيم فمات منه، والثاني أنه لما خطب لبني العباس بلغه فاغتم ومات، وقيل إن أهله أخفوا عنه ذلك، وقالوا إن سلم فهو يعلم، وإن مات فلا ينبغي أن ننغص عليه هذه الأيام التي بقيت من عمره، والثالث أنه لما أيقن بزوال دولته كان في يده خاتم له فص مسموم فمصه فمات منه، وجلس صلاح الدين في عزائه، ومشى في جنازته، وتولى غسله وتكفينه ودفنه عند أهله، واستولى السلطان صلاح الدين على ما في القصر من الأموال والذخائر والتحف والجواهر والعبيد والخدم والخيل والمتاع وغيره.(للمزيد ينظر ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٥، ص٣٣٤-٣٣٥).

(١٠) النويري، **نهاية الأرب**، ج٢٨، ص٢٢٥. ٣٣ج، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م).

(١١) المقس، ناحية بين يدي القاهرة على النيل، وكان قبل الإسلام يسمى أم دنين، وكان فيه حصن ومدينة قبل بناء الفسطاط، وحاصرها عمرو بن العاص، وقاتله أهلها قتالاً شديدًا حتى افتتحها.(الحموي، **معجم البلدان**، ج٥، ص١٧٥).

(١٢) مطله، ماطله بحقه.(ابن منظور، **لسان العرب**، ج١، ص٢٦١).

(١٣) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٢، ص٤٤٧؛ النويري، **نهاية الأرب**، ج٢٨، ص٢٢٥؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٣٠٠.

(١٤) الطواشي، المماليك الخصيان المعينون لخدمة بيوت السلطان وحريمه.(محمد دهمان، معجم الألفاظ، ١٥ج، دار صادر، بيروت، لبنان، ط٣، (١٤١٤هـ/١٩٩٣م). ص١٠٩).

(١٥) بهاء الدين قراقوش، أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدي، الملقب بهاء الدين، كان خادم صلاح الدين، وقيل خادم أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين فأعتقه، ولما استقل صلاح الدين بالديار المصرية جعله زمام القصر، ثم ناب عنه مدة بالديار المصرية، وفوض أمورها إليه، وهو الذي بنى السور المحيط بالقاهرة ومصر وما بينهما، وبنى قلعة الجبل، وبنى القناطر التي بالجيزة على طريق الأهرام، وهي آثار دالة على علو الهمة، ولما أخذ صلاح الدين مدينة عكا من الفرنج سلمها إليه، ثم لما عادوا واستولوا عليها وقع أسيرا في أيديهم، ويقال إنه افتك نفسه بعشرة آلاف دينار، في يوم الثلاثاء (١١ شوال ٥٨٨هـ/٢١ أكتوبر ١١٩٢م)، وكان له حقوق كثيرة على السلطان وعلى الإسلام والمسلمين، والناس ينسبون إليه أحكاما عجيبة في ولايته، حتى إن الوزير الأسعد بن مماتي، له جزء لطيف سماه الفاشوش في أحكام قراقوش، وفيه أشياء يبعد وقوع مثلها منه، والظاهر أنها موضوعة، فإن صلاح الدين كان معتمدًا في أحوال المملكة عليه، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما فوضها إليه، وكانت وفاته في مستهل (رجب ٥٩٧هـ/ أبريل ١٢٠١م)، ودفن بالقاهرة.(ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٤، ص٩١-٩٢).

(١٦) للمزيد ينظر ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٣٥١.

(١٧) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص١٧؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ج٢، ص٧١؛ علي الصلابي، الدولة الزنكية، ٥٣٨-٥٣٩.

(١٨) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٢، ص٤٩٧.

(١٩) عصام شبارو، **السلاطين في المشرق العربي**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١، (١٤١٥/١٩٩٤م).ص١٣٩.

(٢٠) عصام شبارو، المرجع السابق، ص١٤٠.

(٢١) الشوبك، قلعة حصينة في أطراف الشام، بين عمان وأيلة (العقبة)، والقلزم (البحر الأحمر)، قرب مدينة الكرك الأردنية. (الحموي، **معجم البلدان**، ج٣، ص٣٧٠).

(٢٢) الكرك، كلمة عجمية، اسم لقلعة حصينة جدًا في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها، بين مدينة العقبة والبحر الأحمر وبيت المقدس، وهي على سن جبل عال، تحيط بها أودية إلا من جهة الربض.(الحموي، **معجم البلدان**، ج٤، ص٤٥٣).

(٢٣) الرقيم، موضع بالقرب من محافظة البلقاء في الأردن.(الحموي، **معجم البلدان**، ج٣، ص٦٠).

(٢٤) توفي نجم الدين أيوب في أواخر شهر ذي الحجة من العام (٥٦٨هـ/١١٧٣م)، بعدما وقع من على ظهر الفرس.(ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، ج٥، ص٣٣٤) ٨ج، دار القلم، بيروت، لبنان، ط٥، (١٤٠٤هـ=١٩٨٤م).

(٢٥) ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، ج٥، ص٣٣٤.

(٢٦) عسقلان، مدينة بالشام، من أعمال فلسطين، على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين، ويقال لها عروس الشام، وكذلك يقال لدمشق أيضًا.(الحموي، **معجم البلدان**، ج٤، ص١٢٢).

(٢٧) الرملة، واحدة الرمل، مدينة عظيمة بفلسطين، والفضل في إقامتها يرجع إلى الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، الذي ابتدأ بتعميرها عام (٩٦هـ/٧١٥م).(الحموي، **معجم البلدان**، ج٣، ص٦٩؛ عبد الفتاح دخان، مختصر موسوعة بلادنا فلسطين، ج١، ٣١٣) ٢ج، غزة، فلسطين، (١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م).

(٢٨) للمزيد ينظر الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج٤٠، ص٢٢؛ علي الصلابي، صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية، ص٤٥٢-٤٥٥؛ فايد عاشور، **الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين**، ص٧١. "، دار الاعتصام، القاهرة، مصر، (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

(٢٩) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٨، ص٨٥؛ ابن الوردي، **تاريخ ابن الوردي**، ج٢، ص٨٦؛ الذهبي، **العبر في خبر من غبر**، ج٤، ص٢١٧٥٢ج، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط١، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

(٣٠) السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، ج٧، ص٣٦٥؛ بسام العسلي، **الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية**، ص٩٠. ١- دار النفائس، بيروت، لبنان، د. ط، د. ت.

دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

(٣١) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٨، ص٨٦.

(٣٢) الخطي، يعني بالخطي رمح نفسه، أي يتردد بالطعن، كأنه يصور حاله وما يكابده في مجاهدة ومقاومة أعدائه.(الأصفهاني، **شرح ديوان الحماسة**، ج١، ص١٣). شرح ديوان الحماسة، د. د، د. ط، د. ت.

(٣٣) نهلت، أول الشرب.(ابن منظور، **لسان العرب**، ج١١، ص٦٨٠).

(٣٤) المثقَّفَةُ، الرماح المقومة.(أبو حيان الأندلسي، **تفسير البحر المحيط**، ج٢، ص٦٧). ٩ج، تحقيق: علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).

(٣٥) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٨، ص٨٦.

(٣٦) مرج عيون، إحدى القرى اللبنانية الساحلية، من قرى قضاء مرجعيون، في محافظة النبطية.(الحموي، **معجم البلدان**، ج٥، ص١٠١).

(٣٧) بانياس، من أعمال مدينة دمشق السورية.(الحموي، **معجم البلدان**، ج١، ص٥٠).

(٣٨) الدينار الصوري، تطلق الدنانير الصورية أو المشخصة على الدنانير الصليبية، وسميت كذلك لنقش صور أصحابها من ملوك الصليبيين على وجهها.(القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٣، ص٤٥٦). ١٤ج، تحقيق: عبد القادر زكار، وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، (١٤٠١هـ/١٩٨١م).

(٣٩) القومص، تعريب حرفي للفظة اللاتينية (Comes)، أي الأمير، ومعناها الأصلي في اللاتينية (الرفيق)، لأنه كان في بادئ الأمر يرافق الملك في حروبه وتنقلاته، ثم سمي بالأمير.(نقلاً عن محمود شيت خطاب، **بين العقيدة والقيادة**، ص٢٩٤).

(٤٠) طبرية، من مدن فلسطين التاريخية المعروفة، سمّيت بذلك، لأن طبارى ملك الروم بناها.(البكري، **معجم ما استعجم**، ج٣، ص٨٨٧). ٤ج، تحقيق: مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط٣، (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

(٤١) الداوية، هي جماعة صليبية، تكونت نواتها في البداية من تسعة فرسان، كان مهمتهم إرشاد الحجاج المسيحيين، وتوفر لها تأييد الملك بلدوين الثاني (Baldwin II) (٥١٢-٥٢٥هـ/١١١٨-١١٣٠م)، ثم البابا هونوريوس الثاني (Honorius II)، الذي عقد مؤتمرًا خاصًا لذلك في تروى بفرنسا سنة (٥٢٢هـ=١١٢٨م)، وأقر خلاله مبادئ الجماعة، والتي تتكون من اثنين وتسعين مبدًا، وجمعت الداوية بين صفتين رئيستين الفروسية والرهبنة، وكان لهم رداءً مميزًا لهم وهو الرداء الأبيض، كما كان لديهم علمهم الخاص، ويتكون من اللونين الأسود والأبيض، وقد تمكن مؤسس الداوية هيو دي بانيز(Hugh de Payans) من جمع الهبات والعطايا من الغرب، وإقامة مراكز خاصة هناك للتدريب وجمع الأموال، وتحولت هذه الجماعة مع مرور الوقت إلى جيش صليبي دائم، كان له دورٌ كبير ليس في حماية طرق الحجاج بل حماية الكيان الصليبي كله.(إبراهيم سلامة، **دراسات في تاريخ الحروب الصليبية**، ص٤٦-٧٣).

(٤٢) العماد الأصفهاني، **البرق الشامي**، ج٣، ص١٦٢؛ ابن شاهنشاه، مضمار الحقائق، ج١، ص١٦. ١ج، تحقيق: حسن حبشي، القاهرة، مصر، د. ط، د. ت.

(٤٣) ابن شاهنشاه، **مضمار الحقائق**، ج١، ص١٦؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج٤٠، ص٣٢؛ ماجد الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص٢٧٩..

(٤٤) الموصل، المدينة المشهورة العظيمة، إحدى قواعد بلاد الإسلام، ومنها يقصد إلى جميع البلدان، فهي باب العراق، ومفتاح خراسان، ومنها يقصد إلى أذربيجان، قالوا: وسميت الموصل لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق، وقيل: وصلت بين نهري دجلة والفرات.(الحموي، **معجم البلدان**، ج٥، ص٢٢٣).

(٤٥) نص رسالة السلطان صلاح الدين للخليفة العباسي:" أن أهلها يخطبون لسلطان العجم، وينقشون السكة باسمه، وأنهم يراسلون الفرنج، ويغرونهم على قصد بلاد المسلمين، وأنه لم يأت لأجل الازدياد في الملك، ولا لقلع البيت القديم وقطع أصله، وإنما مقصوده ردهم إلى طاعة الخليفة ونصرة الإسلام، وردّهم عما اعتادوه من الظلم واستحلال المحارم، وقطعهم عن مواصلة العجم،

وإلزامهم بما يجب عليهم من حفظ الجار وصلة الرحم؛ فهذا صاحب الجزيرة، وهو ابن أخي صاحب الموصل عز الدين، ولي عهد أبيه لم يرع فيه ذمة أخيه، وأبعده عما يستحقه بالإرث، وقطع رحمه وأخافه، ولو تمكن منه لأهلكه، ولولا خوفه منه لما أفضى إلى هذا المقام، ما اختار البعيد على القريب، صاحب إربل جارهم، وأبوه زين الدين هو بيتهم، وسيّد أمرهم، وهو يشكو جوارهم في حقه وظلمهم له".(ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٢، ص١٦٦).

(٤٦) بلد، مدينة بالقرب من مدينة الموصل.(الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ج٢، ص٦٦٠) ٢ج، بيروت، لبنان، ط١، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).

(٤٧) خِلاط، البلدة العامرة المشهورة، ذات الخيرات الواسعة، والثمار اليانعة، وهي من فتوح الصحابي الجليل عياض بن غنم الفهري القرشي، سار من الجزيرة إليها، فصالحه بطريقها على الجزية، ومال يؤديه، ورجع عياض إلى الجزيرة، وهي قصبة أرمينية الوسطى. (الحموي، **معجم البلدان**، ج٢، ص٣٧٩-٣٨٠).

(٤٨) ابن شاهنشاه، **مضمار الحقائق**، ج١، ص٢١٧؛ فايد عاشور، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين؛ عبد الرحمن عزام، صلاح الدين، ص١٨٨-١٨٩؛ سامي أبو زهري، **صلاح الدين الأيوبي**، ص١٨٩.

(٤٩) حرّان، مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مضر، بينها وبين الرها يوم واحد، وبين الرقة يومان، وهي على طريق الموصل والشام والروم.(الحموي، **معجم البلدان**، ج٢، ص٢٣٥).

(٥٠) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص١٤٠.

(٥١) ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، ج٥، ص٣٥٨؛ المقريزي، السلوك، ج١، ص٢٠٩؛ الحنبلي، **الأنس الجليل**، ج١، ص٣٢٣.

(٥٢) **بين العقيدة والقيادة**، ص٢٩٥-٢٩٦.

(٥٣) الخرُّوبَةُ: حصن بسواحل بحر الشام، مشرف على مدينة عكا في شمال فلسطين. (الحموي، **معجم البلدان**، ج٢، ص٣٦٢).

(٥٤) أبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين**، ج٤، ص١٠٩؛ ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٣، ص١٧.